الشيخ حسين بن غنام أديبًا

د. خالد بن سعود الحليبي

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد: فقد كان الأدب بعامة، والشعر بخاصة حاضرًا، بل شاهدًا على الأحداث التي أحاطت بدعوة الشيخ المجدد محمد بن عبدالوهاب ﷺ ورافقت قيام وتوسع دوائر الدولة السعودية الأولى، وسخر الله لتلك الدعوة العظيمة، والدولة التي بنت أسس ملكها على إقامة الشريعة السمحة عددًا من العلماء، والمؤرخين، والأدباء، والشعراء.

وكان نصيب الأحساء في الجانب الأدبي عظيمًا، حيث قدمت ثلاثة شعراء، تركوا أثرًا بالغًا في تسجيل تلك المرحلة شعرًا ونثرًا، هم: أحمد بن مشرّف الأحسائي، وحسين بن غنام التميمي، وعبدالله بن المبارك بن بشير الأحسائي[1].

وكان أقربهم إلى الشعر فنًّا وكمًّا ابن مشرّف، حيث كان له ديوان كامل، يمتاز بتنوع الموضوعات، وأكثرهم نثرًا ابن غنام؛ حيث كتب تاريخه الكبير: (روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوي الإسلام)، وعُرِف به، وساق فيه مجموعة من قصائده بحسب مناسباتها. وأما ابن بشير فلم يصل من نتاجه إلا ما يدل على قلته.

وإذا كان ابن مشرّف قد حظي باهتمام كبير من كل الدارسين لهذه الحقبة الزمنية فإن ابن غنام لم يحظ بمثل ذاك؛ حتى قلت المصادر عن شخصيته، بل ندرت، وبعضها ينقل عن بعض؛ ولعل من أسباب ذلك كون حياته ليس فيها

---

(1) أديب أحسائي مغمور، مقالة، حمد الجاسر، العرب، (ذوا القعدة والحجة 1407هـ)، ص204.

نتوءات واضحة، تلفت أنظار المعنيين بالسِّيَر، واتجاهه إلى السجع المتكلف في نثره، وانحصاره في تاريخه، وقلة شعره مع تقليديته مما يسوغ للباحثين قلة الاهتمام بشخصيته وتاريخه، وأما ابن بُشَيِّر فقد غاب تمامًا عن المصادر، ولم يكشف عنه سوى الشيخ حمد الجاسر في مجلة العرب عن مصادر غير متداولة.

ولكون هذا البحث مقتصرًا على شعر ابن غنام ونثره - دراسة فنية وموضوعية - فلا يكاد الباحث يجد شيئًا ذا بال كتب عن كل ذلك، فإن غالب من تحدثوا عنه كانوا مؤرخين، ينظرون إلى قيمة تاريخه من الناحية العلمية، وكونه وثيقة مهمة جدًّا؛ لكونه كتب بيد عالم موثوق، في الزمن الذي عاش أحداثه بنفسه، فهو شاهد عصر ليس له مماثل على الإطلاق في عصره.

ولذلك لجأت إلى التعرف على آراء من سبقني، وأبرزهم الأستاذ عبدالعزيز بن أحمد العصفور في بحث صغير مخطوط عن حياته.

ثم انطلقت إلى كتابه مباشرة، الذي يعد الوثيقة الأهم في كل تراثه، حيث حوى نثره وشعره، ولا ديوان له سواه، سوى ما تناثر من قصائد في بعض المجموعات الشعرية، والمخطوطات، واخترت من طبعات تاريخه تلك الطبعة التي خدمته دون المساس بمحتواه، التي أخرجها وعُني بها الأستاذ سليمان بن صالح الخراشي، ونشرتها دار الثلوثية للنشر والتوزيع عام 1431هـ / 2010م، فما أذكره في الهوامش دون تحديد لطبعته فأعني به هذه.

ومهدت الدراسة بحديث عن حياة الأديب المؤرخ، ثم قُسمت قسمين رئيسين: الشعر والنثر، تتناول أبرز السمات والخصائص التي تمثلها الأديب الشاعر ابن غنام مضمونًا وشكلًا.

ثم جاءت الخاتمة بملخص لما حاولت الدراسة أن تلمَّ شمله من المعلومات، وما توصلت إليه من نتائج.

أرجو أن أكون قد أسهمت في كشف الغطاء عن أدب ابن غنام، وأن أكون قد وفقت للحكم على نتاجه، بحيْدة وعلمية بحتة، وأشكر دارة الملك عبدالعزيز على إتاحة هذه الفرصة؛ للمشاركة في هذا المشروع العلمي البحثي الوطني، راجيًا أن يلقى التوفيق والنجاح.

عصر الأديب:

من المفيد جدًّا أن أترك شاعرنا وأديبنا يصف عصره في جزء من البلاد المسلمة آنذاك؛ مثالًا لاستكشاف رؤيته الخاصة به لما كان يحدث من تحولات هائلة في الجانب العقدي على وجه الخصوص، فقد عاش في المدة التي عاش فيها إمام الدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب ﷺ، ورأى كيف أحال الله تعالى ظلام الجزيرة العربية نورًا مبهرًا؛ حين تبنى دعوتَه الإمامُ محمد بن سعود ﷺ، فكان للعهد بين الإمامين من البركة والخير ما تعاقب قرونا متتابعة ولله الفضل والمنة.

يقول الشيخ حسين ابن غنام: «وأما ما يفعل الآن في الحرم المكي الشريف – زاده الله رفعة وتشريف[1] – فهو يزيد على غيره وينيف، فيفعل في تلك البقاع المطهرة المكرمة، والمواضع المعظمة المحترمة ما يحق أن تسفح عند رؤيته سحائب العيون والأجفان، وتذال[2] لأجله الدموع ولا تصان، وتلتهب في القلب لواعج الأحزان، إذا رأى ما يصدر في تلك الأماكن من أولئك العربان، من الفسوق والضلال والعصيان، وما عرى الدينَ فيه من الهوان، فلقد انتهكت فيه المحرمات والحدود، وكان لأهل الباطل فيه قيام وقعود، كما هو الآن مشاهد وموجود»[3].

(1) الأصل أن يقول: «وتشريفًا»، ولكنه سار مع السجع المتكلف، فسكن.

(2) تذال: تسفح.

(3) ابن غنام، حسين، كتاب الغزوات البيانية والفتوحات الربانية، (1152 – 1225هـ)، اعتنى به: سليمان بن صالح الخراشي، دار الثلوثية للنشر والتوزيع بالرياض، 1431هـ/ 2010م، 1/ 176.

وفي هذا النص ما يغني عن إيراد غيره، إذْ تتبعَ مؤرخنا البلدان العربية المسلمة بلدًا بلدًا، وذكر ما كان يحدث فيها من بدع وضلالات، بقلب واجف، ودمع واكف، وشعور بقهر الرجال، وهو يشاهد جور الفجار، وعلو كلمتهم، وهو بذلك يذكرنا بمؤرخي المسلمين الأوائل أمثال ابن الأثير، الذي إذا أورد شيئًا من مثل ذلك قال: «لقد بقيت عدة سنين معرضًا عن ذكر هذه الحادثة استعظامًا لها، كارهًا لذكرها، فأنا أقدم إليه رجلًا وأؤخر أخرى، فمن ذا الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين، ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك، فيا ليت أمي لم تلدني، ويا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيًا منسيًّا»[1].

وهو ما لا يوجد عند بعض المؤرخين الذين لا يعنيهم سوى رصد المعلومة، ودقة الأرقام، وليس في قلوبهم من لواعج الهموم لأمة الإسلام موضع، فليست النائحة كالثكلى.

ولعل هذه الأحاسيس التي مزجت دمعة الفرح مرة، ودمعة الحزن مرة بأحبار ابن غنام وأخبار هي أبرز ما يميزه عن غيره، حيث كتب ما كتب وهو يعيش جزءًا من كيان، ارتبط به عقيدة ومصيرًا.

ومن هنا فلابد للمؤرخ والناقد الأدبي أن يفطن للغطاء العاطفي الذي قد يغلف تلك النصوص التاريخية، وبخاصة أن المؤرخ اختار (السجع) نمطًا بديعيًّا يصوغ به معلوماته له تأثيره في اختيار الألفاظ؛ وهو ما يجعله قد يورد ما لا يريد ـ بدقة ـ من المعاني، فلربما بالغ محبة، وربما تورات الحقيقة خلف تحفة بديعية وراءها دافع نفسي، لا يستطيع صاحب المبدأ التخلي عنه، وبخاصة حين يصف انتصار الخصوم، وهزيمة القوم.

(1) ابن الأثير، أبو الحسن علي، الكامل في التاريخ، طبعة دار الكتاب العربي، 1417هـ/ 1997م، ص10/ 339.

حياة الشاعر المؤرخ حسين ابن غنام:

نسبه:

هو حسين بن أبي بكر بن مبارك بن علي آل غنام من بني تميم[1].

مولده:

كانت ولادته عام 1152هـ، في ضاحية القُديمات ببلدة المبرز[2]، وهي المدينة الثانية -بعد الهفوف- من مدن محافظة الأحساء، التي كانت تسمى أيضًا هجر آن ولادة أديبنا. ثم أصبحت الأحساء إحدى أبرز محافظات المنطقة الشرقية في المملكة العربية السعودية حاليًّا، وتقع جنوبها.

عصره:

عاش ابن غنام النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري وأوائل الثالث عشر، وهي المدة التي رأى فيها الجزيرة العربية تنهض من كبوتها العقدية والسياسية على يدي الإمامين: الشيخ محمد بن عبدالوهاب إمام الدعوة، والإمام محمد بن سعود إمام الدولة، فوجد في نصرته لهذه الدعوة وتلك الدولة ضالته المنشودة، فكان بإجماع المؤرخين اللسان المدافع عن الدعوة ورجالها.

نشأته، ومذهبه الفقهي، والعقدي:

نشأ الشيخ حسين ابن غنام في بيئة علمية؛ إذ كانت الأحساء في عصره

(1) آل عبدالقادر، محمد، تحفة المستفيد بتاريخ الأحساء في القديم والجديد، القسم الثاني: المكتب الإسلامي، دمشق، 1382هـ، وطبعته مع الجزء الأول مكتبة المعارف بالرياض، ومكتبة الأحساء، 1402هـ، ص361 و432، وشعراء هجر من القرن الثاني عشر إلى القرن الرابع عشر، دار العلوم للطباعة والنشر، 1401هـ/ 1981م، مطبعة المتوسط ـ بيروت ـ لبنان، ص77، والقاضي، محمد بن عثمان، روضة الناظرين عن مآثر علماء نجد وحوادث السنين، دار الثلوثية للنشر والتوزيع، الرياض، 1433هـ/ 2012م، ص1/ 104.

(2) العصفور، عبدالعزيز، الغنام، عبدالرحمن، حياة الشيخ حسين بن غنام، بحث، مخطوط، ص7.

جامعة الخليج الأولى، يفد إليها طلبة العلم من الخليج العربي والجزيرة والعراق، ومن بعض الدول الآسيوية، بل عدها العلامة حمد الجاسر ﷺ: «منذ القرن العاشر مركزًا من مراكز العلم في الجزيرة، يفد إليها الطلاب من نجد ومن سواحل الخليج العربي ليأخذوا من علمائها»[1]، بل واستقبلت إمام الدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب في جلسات علمية دارس فيها أحد علمائها الكبار؛ الشيخ عبدالله بن محمد بن عبداللطيف[2]، فوجد ابن غنام فرصًا وافرة للتكوين العلمي الرصين.

وساعد على ذلك نشأته في بيت علم، فبدأ كما يبدأ تلاميذ عصره بالقرآن الكريم فقرأه وحفظه، ثم تتلمذ على جده الشيخ مُبارك بن علي الغنام فأخذ عنه مبادئ علوم السلوك والفقه المالكي والعربية[3]، وقد عدَّه الشيخ محمد بن أحمد العمري الموصلي نزيل الأحساء في القرن الثاني عشر الهجري أحد أكبر علماء المالكية في الأحساء؛ فقال في منظومته الطويلة[4]:

والشيخُ سيدُنا الذي هو قد صفا ... لله في السراءِ والجهراء
العمدةُ الروضُ الذي بثمارِه ... في العلمِ مشبهُ روضةٍ غناء
قمرُ الجهابذةِ الذي هو مشرقٌ ... ومنيرُ هذا الوقتِ بالأضواء
نهرُ الوفاءِ مباركُ بنُ علي الـ ... جالي بماءِ علومه لِصَدَاء

وكان من علماء أسرته: الشيخ أحمد بن غنام المالكي وكان بارعًا في العربية، والشيخ محمد بن غنام، المعروف بعلم الفرائض، وهو من العلوم التي

(1) الجاسر، حمد، مؤرخو نجد، مجلة العرب، ص5/ 792-794.
(2) تحقيق ناصر الدين الأسد وعبدالعزيز آل الشيخ، تاريخ ابن غنام، مطابع شركة الصفحات الذهبية، الرياض، ط3، 1403هـ، ص2/ 9.
(3) آل عبدالقادر، محمد، تحفة المستفيد، ص2/ 396.
(4) تحفة المستفيد، 396.

عُنيت بها مدارس العلم الأهلية في الأحساء إلى وقتنا هذا، مما قد لا يوجد له مثيل في العالم الإسلامي، ومن أسرته الشيخ حسين بن محمد الغنام، وابنه الشيخ عبدالله، الذي كانت له مساجلات شعرية مع بعض علماء عصره، أمثال: الشيخ صالح السعد، والشيخ محمد بن عبدالله العرفج، والشيخ محمد بن عبدالرحمن ابن غنام.

ولكون بيت آل غنام من أعرق البيوت في تبني المذهب المالكي فقد كان قاضي (المبرز) الشيخ عبدالله بن علي آل عبدالقادر أحد أكبر علماء الأحساء وشعرائها يلقبهم ببيت (آل مالك) في الأحساء[1].

ومن عادة البيوت العلمية في الأحساء أنها تتنافس في توجيه أولادها لطلب العلم، والحصول على أعلى درجاته، كما أن اهتمامها بالشعر وروايته، وتداوله في المجالس، وتعليم علوم اللغة العربية له أثر مباشر في توجه ناشئتها إلى قوله.

ثم تتلمذ أديبنا على عدد من علماء الأحساء الآخرين ولاسيما علماء آل الشيخ مبارك؛ لكونهم مالكية المذهب، وعلى بعض العلماء في البحرين والساحل؛ حتى أصبح من علماء زمانه المعروفين في المذهب المالكي، الذي كان سائدًا في بلدته.

وفي الأحساء تتعايش كل المذاهب الفقهية بأريحية عالية، ويوقر علماؤها بعضهم بعضًا، ولكل مذهب مدرسة أهلية، وشيوخ، وتلاميذ، ومؤلفات، ودروس، بل وأسر تحتفي بها، وكان من أبرز البيوت التي اعتنت بالمذهب المالكي: أسرة آل غنام، وأسرة آل كثير، وعنهم أخذته أسرة آل مبارك، التي انتقلت إلى الهفوف، وأصبحت من أشهر أسر الأحساء العلمية، بل تولت نشر المذهب المالكي في عدد من دول الخليج العربي[2]، ويذكر أن الأحساء كانت

(1) العصفور، عبدالعزيز بن أحمد، علماء الأحساء مسيرة وعطاء وصدارة، (مخطوط)، ص1.
(2) انظر: روضة الناظرين للقاضي، 104، وشعراء هجر، 49.

من مراكز الدراسات المالكية المهمة في العصور الإسلامية[1].

وكان ابن غنام سلفي العقيدة، وله في ذلك مصنَّفٌ بعنوان: العقد الثمين في شرح أصول الدين[2]. وهو الذي سجل فيه تأثره بالدعوة السلفية، واعتقاد أهل السنة والجماعة.

رحيله إلى نجد:

وبعد أن رأى منه آل سعود حبه للدعوة، ومنافحته عنها، ورأوا ما لحق باللغة العربية من ضعف شديد في وسط نجد وغيرها، وعدم العناية بها، حتى قل شعراء الفصحى، وطغت العامية؛ انتدبه الإمام عبدالعزيز بن محمد آل سعود ـ بعد دخوله الأحساء أول مرة ـ لتدريس العربية في (الدرعية) التي تعد مركز الدولة آنذاك، وهو من بيئة (الأحساء) ذات العناية الفائقة بالفصحى في ذلك الوقت، حتى لا تكاد تسمع سوى الشعر الفصيح، بينما كانت دروس العربية شائعة في المدارس الأهلية في الأحساء، بل كان العلماء يسمونها علوم الآلة، يعنون بها العلوم التي تعينهم على فهم الوحيين، وفقه الشريعة.

استقر في الدرعية منذ عام 1200هـ[3]، ولازم الشيخ محمد بن عبدالوهاب في جلساته ست سنوات؛ حيث توفي الشيخ محمد سنة 1206هـ، وأخذ عنه العلوم الشرعية، وصار له عضدًا في سبيل نشر الدعوة إلى الله، والدفاع عنها شعرا ونثرا، كما قرأ على غيره من علماء الدرعية.

وكان ابن غنام مفرط الذكاء، قويًّا في حفظه، سريعًا في فهمه، فنبغ في فنون عديدة، وكأنه كان يتأهل في الأحساء من العلوم التي عرفت بها؛ ليتبادلها مع علماء نجد في العلوم التي عرفوا بها، وبخاصة في العقائد والحديث والتفسير.

(1) دائرة المعارف، إدارة فؤاد أفرام البستاني، بيروت، 1967م، ص7/ 187.

(2) عنوان المجد في تاريخ نجد، لعثمان بن عبدالله بن بشر، 197.

(3) حياة ابن غنام للعصفور والغنام، ص11؛ وانظر: روضة الناظرين للقاضي، 104.

تحلق حوله في (الدرعية) عدد من الطلبة، وعرف عنه حسن التعليم[1]، والبيان، والتنوع المعرفي؛ فقد كان يدرّس الطلبة الفرائض وعلوم العربية كلها، وأما الفقه فكان فيه مالكي المذهب، وأهالي نجد كلهم حنابلة، وكان شاعرًا منطيقًا، ومؤرخًا بارعًا، ومجالسه ممتعة، ومحادثته شيقة.

ولا شك بأن الدعوة كانت تحتاج في انطلاقاتها إلى مناطيق بلغاء يتسلحون ببيان العربية؛ للرد على الخصوم الذين كانوا يناهضونها بألسنتهم، كما يناهضونها بسيوفهم.

وتخرج على يديه طلبة كثر أصبحوا أعلامًا في العلم والدعوة والتأليف، ومن أبرز تلامذته النابهين من نجد: فقيه نجد ومفتيها الشيخ سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب (ت: 1233هـ)، والشيخ عبدالعزيز بن محمد بن شلوان، والشيخ عبدالرحمن بن حسن بن محمد بن عبدالوهاب (ت: 1285هـ)، والشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن الحصيّن، والشيخ حمد بن ناصر بن معمر (ت: 1225هـ)، وابنه الشيخ عبدالعزيز الذي كان عالمًا شاعرًا أديبًا[2]، ومنهم في الأحساء شاعر الدعوة المجيد الشيخ أحمد بن مشرّف الأحسائي الذي يعد من أكبر شعراء الدعوة أهمية.

ومن تلاميذه في الأحساء: الشيخ عبدالله بن أحمد آل عبدالقادر، والشيخ أحمد بن محمد الغاشمي بني النجار، والشيخ صالح بن عبدالله بن الشيخ عيسى بن مطلق[3]، ومنهم الشيخ عبدالله بن المبارك بن بُشيِّر الذي أحضره الإمام سعود من الأحساء كما فعل مع شيخه ابن غنام؛ «للاستفادة من علمه وأدبه»[4].

(1) روضة الناظرين، للقاضي، 104.

(2) عنوان المجد في تاريخ نجد (1210 – 1290هـ)، لابن بشر، 197.

(3) حياة ابن غنام للعصفور والغنام، ص2.

(4) أديب أحسائي مغمور، مقالة، حمد الجاسر، العرب، (ذوا القعدة والحجة 1407هـ)، ص204.

انتماؤه المحلي:

وقد تنازع[1] مؤرخو الدعوة والأدب شخصية ابن غنام بين مسقط رأسه في الأحساء، والبيئة التي برز فيها وأعطى وأنتج في نجد، وبخاصة الدرعية، ويظهر ذلك من إدراجه في قائمة علماء نجد، وأشار إلى هذه الازدواجية ابن عثمان القاضي في روضته النجدية حين قال: «الأحسائي مولدًا، والنجدي وفاة وإقامة»[2].

وهو تنازع له وجهته العلمية، فالعالم والأديب ينسب إلى بلده الذي ولد فيه ونشأ وتعلم، كما ينسب إلى البلد الذي نما فيه وعاش دهرًا من حياته ينتج فيه ما يخلده، وهو ما نجده في معاصر له ولد في العراق ونشأ وتعلم، وعاش ثلاثين عامًا في (الأحساء) وهو الشيخ الشاعر عبدالله البيتوشي[3] ﷺ، فقد أرخ له العراقيون، كما أدرج في شعراء الأحساء وعلمائها في كتب التاريخ والأدب التي رُقمت في الأحساء.

ولعل التنازع على الشعراء ظاهرة شائعة في الخليج، رصدها أ.د.عبدالرزاق حسين من خلال شخصيات عديدة، مثل: محمد بن عثيمين، وخالد الفرج، ود.غازي القصيبي، وصقر الشبيب، وغيرهم.

(1) التنازع في الاصطلاح الأدبي: «تجاذب تاريخ الأدب في بيئات متعددة لشاعر واحد، بادعاء أحقيته، والقول بانتمائه» التنازع على الشعراء في الخليج والجزيرة، أ.د.عبدالرزاق حسين، دار البشير، عمان، 1406هـ/ 1985م، ص21-22.

(2) روضة الناظرين، للقاضي، 1/ 104.

(3) الشيخ عبدالله بن محمد الكردي البيتوشي عالم وخطيب وأديب وشاعر، من مواليد بيتوش في كردستان عام 1130هـ، أقام في الأحساء نحو ثلاثين عامًا، وكان من أسباب انتعاش الحوار العلمي والشعري فيها، توفي سنة 1211هـ. سبائك العسجد في أخبار أحمد نجل رزق الأسعد، لعثمان بن سند البصري، مطبعة البيان ببمبي 1315هـ، وتحفة المستفيد، لمحمد آل عبدالقادر، 2/ 381.

وهي فرصة بحثية؛ لدراسة أثر انتماء الباحث إلى البلد الذي تنتمي إليه الشخصية التي يدرسها.

وفاته:

توفي في مدينة الدرعية بنجد في ذي الحجة سنة 1225هـ[1]، وليس له عقب، وله أبناء عمومة في الأحساء[2].

مؤلفاته:

له مؤلفان مطبوعان، أودع فيهما معتقده السلفي، ورؤيته في الدعوة إلى الله تعالى، ونصرته لها بكل ما أوتي من قدرات بيانية وعلمية.

الأول: (العقد الثمين في شرح أحاديث أصول الدين)، كتبه بأمر من الإمام عبدالعزيز بن محمد بن سعود، كما صرح بذلك في مقدمته، وقد بقي مخطوطًا حتى حققه إبراهيم يوسف الماس في رسالة ماجستير في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ثم حققه الدكتور محمد بن عبدالله الهبدان وطبعه، وهو متاح على الشبكة العنكبوتية بتحقيقه.

والثاني: روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام، وتعداد غزوات ذوي الإسلام، المسمى تاريخ ابن غنام، وقد كان مبدأ تأليفه رغبة من ابن غنام نفسه، ثم أردفت بتوجيه من الشيخ محمد بن عبدالوهاب، حين رأى منه تعلقه بالدعوة وإمامها، فعزم عليه أن يسجل مبتدأ أمره من عام 1158هـ حتى وقف عند مستهل سنة 1213هـ، ولم يكتب فيها شيئًا فيما يظهر. وصرح بحثِّ الشيخ له بقوله: «والإمام -أيده الله تعالى- يعزم علي في ذلك ويشير»[3].

(1) عنوان المجد، لابن بشر، 197، وهو محل إجماع من جميع المؤرخين.

(2) مشاهير علماء نجد وغيرهم، عبدالرحمن بن عبداللطيف آل الشيخ، إشراف دار اليمامة، الرياض، ط2، 1394هـ، ص201، وروضة الناظرين، للقاضي، 105.

(3) تاريخ ابن غنام، 168.

وقد طبع أربع طبعات:

الأولى: سنة 1331هـ بمدينة بومباي بالهند على نفقة الملك عبدالعزيز آل سعود رحمه الله.

والثانية: بطبعة البابي الحلبي بمصر عام 1368هـ، على نفقة المحسن عبدالمحسن بن عثمان أبا بطين، صاحب المكتبة الأهلية سابقًا بمدينة الرياض.

والثالثة: قام بها الدكتور ناصر الدين الأسد بعد تحقيقها، بمطبعة المدني بمصر عام 1381هـ على نفقة الشيخ عبدالعزيز بن محمد بن إبراهيم آل الشيخ.

ولكن الدكتور الأسد حرره بقلمه من السجع المتكلف الذي لفَّ به ابن غنام معلوماته التاريخية، مما يحجب الرؤية ـ أحيانًا -عن القارئ- ولكنه أنهك الكتاب، وحرم القارئ من القصائد؛ حيث حذفها بالكامل، كما حذف -أيضًا- بعض الرسائل العلمية والدعوية دون إشارة أيضًا، ولم يعد للكاتب غير المحتوى التاريخي، ولذلك فالكتاب في هذه الطبعة لا يمثل أسلوب الكاتب ولا روحه.

والرابعة: طبعت بعناية الأستاذ سليمان بن صالح الخراشي وطبعه عام 1431هـ، وهي الطبعة الأمينة، التي وضعت الكتاب أقرب ما يكون إلى ما وضعه المؤلف بنفسه، دون تغيير ولا زيادة ولا نقصان، فكانت هذه الطبعة هي التي اعتمدتها للحكم على نثر ابن غنام وشعره، وتتميز كذلك بمقدماتها، التي جمعت بعض ما كُتب عن ابن غنام، مع ترجمة جيدة له.

على أن الأستاذ سليمان الخراشي لم يكمل الكتاب حتى آخره، بل انقطعت به المخطوطات التي بين يديه في وسط قصيدة لامية منقولة عن شاعر لم يفصح عنه المؤلف، بينما مخطوطة مكتبة ندوة العلماء بلكهنؤ بالهند، تكمل الكتاب حتى آخره، بزيادة ثلاث لوحات ونصف (خمس صفحات)، وتنهي الكتاب بقول المؤرخ: «ودخلت السنة الثالثة عشرة بعد المائتين والألف»، كما ينهي

الناسخ الكتاب بقوله: «وهذا آخر ما أرخه الشيخ حسين بن غنام الأحسائي، غفر الله تعالى له، وقد انتهى تحريره في يوم السبت الرابع من شهر شوال المعظم أحد شهور سنة 1294هـ، الرابعة والتسعين بعد المائتين والألف، بقلم راجي عفو ربه الغفار عبده المذنب: شريدة بن علي الطيار، ...».

وإني لأتمنى أن تكون الطبعة القادمة للكتاب مستكملة بما حوته هذه المخطوطة، التي اطلعت على نسخة مصورة عند الأستاذ عبدالعزيز بن أحمد العصفور، وهو من المهتمين بتراث الأحساء.

وهذا التاريخ «أول راصد لتاريخ نجد وأحداثها»[1]، و«يعد [صاحبه] بإنصاف رائدًا لمؤرخي نجد في الفترة التي تناول أحداثها»[2].

فمهما أُخذ عليه من مآخذ في الأسلوب، أو حشد النصوص التي كان يمكن أن تفرد بمؤلف خاص- كرسائل الشيخ محمد بن عبدالوهاب ﵀ تعالى إلى بعض معاصريه -يظل الكتاب مصدرًا موثوقًا لتلك المدة، وشاهد عصر من الدرجة الأولى، حتى أَصبح أهم المصادر على الإطلاق لتأسيس الدولة السعودية الحديثة.

والمؤلف الثالث: حاشية على شرح الشيخ محمد الخراشي لمتن خليل في الفقه المالكي، جمعها وقيدها في أثناء قراءته على الشيخ عيسى بن مطلق المالكي في بعض كتب المالكية[3].

(1) ابن غنام مؤرخ وتاريخ، مقال، د.محمد بن سعد الشويعر، مجلة الدارة، السنة: 4، العدد: 1، ربيع الآخر، 1398هـ.

(2) ابن غنام مؤرخًا، للدكتور عبدالله بن صالح العثيمين، من كتابه: مراجعات في مصادر التاريخ السعودي (31-58)، عن مقدمات سليمان الخراشي لتاريخ ابن غنام، 44.

(3) علماء الأحساء ومسيرة العطاء والصدارة، للعصفور (مخطوط)، ص170.

وله-كذلك- فتاوى وأجوبة فقهية، أجاب فيها عن مسائل رفعها إليه الشيخ محمد بن أحمد الحفظي، توجد نسخة منها في مكتبة الملك فهد الوطنية[1].

ابن غنام شاعرًا:

(ابن غنام) عالم أولًا، وشاعر ثانيًا، إذ لم يكن الشعر همه، ولا وسيلته المثلى للتعبير عن مواقفه أو مشاعره[2]، ولكنه يحضره في مناسبات خاصة مع أصدقائه، أو المناسبات الكبرى، التي تحتدم فيها مشاعره، فلا يجد لها مسربًا سوى الشعر، وهذا ما يفسر قلة قصائده التي وصلت إلينا، فهي إما إجابة لقصيدة، أو تعبير عن شعور قويّ؛ فرحًا أو حزنًا.

ولا غرابة أن يقول الشعر؛ فهو من بلدة كان جميع العلماء فيها خلال حياته يقولون الشعر، وكانت مجالسهم به عامرة، يتناشدونه فيما بينهم، ويروون جيده، ويتبادلون رسائله الإخوانية بعفوية ورقة.

ومن يتصفح تاريخه يجد صدى تلك الأشعار، فيما بثه منها بين الأخبار، مستشهدًا ومُطعِّمًا؛ وهو ما يشير إلى أن ثقافته اللغوية والأدبية كانت رافدًا قويًّا لقريحته الشعرية[3].

توثيق القصائد:

من يعرف طول نفس الشاعر، وقدرته على النظم، وصبره على الكتابة في تاريخه بلغة مقصودة وليست عفوية، ويطلع على الأحداث التي مرت به، وما عاصره من مجموعة من الشعراء الذين خدموا دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب،

(1) آل فائع، أحمد يحيى، دور آل المتحمي في مد نفوذ الدولة السعودية الأولى في عسير وما جاورها، مطابع الحمضي بالرياض، الطبعة الأولى، 1427هـ، ص439.

(2) انظر: حسين بن غنام، هل كان شاعرًا؟ للأستاذ عبدالله الشباط، مقالة، القافلة، العدد: 3، المجلد: 32، ربيع الأول 1404هـ/ ديسمبر 1983م، ص46-48.

(3) انظر تاريخه: 222، و223، و224، و230، وغيرها كثير.

يتوقع أن تكون قصائد ابن غنام أكثر مما حصل عليه بعض الباحثين، منهم من ذكر أنها ثلاث فقط[1]، ومنهم من ذكر أنها تسع، أو اثنتا عشرة، كما اجتمعت هنا من مجموعة من المصادر.

وسعيت لأوثق ما استطعت منها هنا؛ خدمة للباحثين الذي يرغبون في دراسة شعره، أو شعر الحقبة التي عاشها، أو الظواهر التي شارك فيها غيره من الشعراء، بل إنها تخدم حتى مؤرخي تلك المدة؛ لما تحويه من عناصر تاريخية كثيرة، ومن يدري فلربما يفصح الدهر عما تخبأ بين أصابعه من قصائد أخرى، ربما تكشفها المخطوطات الكثيرة التي لا تزال في المخابئ.

وستجد القصيدة الواحدة مروية في عدد من المصادر، ولكنها متفاوتة الأبيات، فرائيته التي مطلعها:

هل الدِّعصُ إلا ما حـــواه إزارُها أو البـــانُ إلا ما أبـــانَ اهتصارُها

مروية في مختارات آل عبدالقادر[2]: (33) بيتًا، وفي شعراء هجر[3]: (32) بيتًا، وفي تحفة المستفيد[4]: (27) بيتًا.

ولذلك فإني أجد أهمية إصدار ديوان متكامل، يجمع شتات القصائد، ويصل إلى أقصى ما اجتمع من أبيات، والتأكد من أنها له، وليس من زوائد الرواة، كما لحظت اختلافًا في الروايات في الألفاظ وترتيب الأبيات؛ وهو ما يؤكد أهمية جمع شعره وتحقيقه.

(1) شعراء هجر، للدكتور عبدالفتاح الحلو، 78 ، وتبعه آخرون.
(2) مختارات آل عبدالقادر، لمحمد آل عبدالقادر، ص170-172.
(3) ص78-80.
(4) ص361-362.

القصائد:

ذُكرت لابن غنام اثنتا عشرة قصيدة، وهي:

1- قصيدة يذكر فيها ما أصاب قومه من الجراح في حوادث غزو بلاد نجران سنة 1187هـ، مطلعها[1]:

عـــينُ جـــودي بواكـــفٍ هتَّانِ واســـكبي عـــبرةً مـــن الأجفان

وتبلغ عشرة أبيات.

2- انتصاره للدعوة بقصيدة مطلعها[2]:

نفوسُ الـــورى إلا القليلَ ركونُها إلى الغـــيِّ لا يُلفي لديـــنٍ حنينُها

وتبلغ ستة وثلاثين بيتًا.

3- إشادته بمناسبة جلاء دهام بن دواس عن الرياض ومطلعها[3]:

كشـــفَ الحقُّ ظلمـــةَ الأغلاسِ ومحـــا الدِّيـــنُ جُملـــةَ الأرجاسِ

وتبلغ اثنين وثلاثين بيتًا.

4- رثاؤه للشيخ محمد بن عبدالوهاب ﵀ بقصيدة مطلعها[4]:

إلى الله في كشف الشـــدائد نفزع وليـــس إلى غير المهيمـــن مفزع

وتبلغ أبياتها تسعة وثلاثين بيتًا.

5- نقيضة شعرية، ردَّ بها على قصيدة محمد بن فيروز الحنبلي[5]، والذي

(1) تاريخ ابن غنام، 2/ 771، وفي المخطوط: 155.

(2) تاريخ ابن غنام، 2/ 776، وفي المخطوط: 156-157.

(3) تاريخ ابن غنام، 2/ 799-800، وفي المخطوط: 163.

(4) تاريخ ابن غنام، 2/ 902-904، وفي المخطوط: 192.

(5) هو محمد بن عبدالله بن فيروز، ولد بالأحساء عام 1146هـ، وتعلم فنبغ، وأخذ عنه عدد من=

امتدح الأخير ثويني بن عبدالله (حاكم البصرة آنذاك)، وحيا سعيه للقضاء على الدولة السعودية، ومطلع قصيدة ابن فيروز[1]:

أنامل كفِّ الســـعدِ قد أثبتتْ خطَّا بأقلام أحكامٍ لنـــا حُرِّرتْ ضبطا

ومطلع قصيدة ابن غنام[2]:

على وجهها الموســـوم بالشؤم قد خُطَّا عروس هوىً ممقوتة زارت الشـــطَّا

وتبلغ ستة وسبعين بيتًا.

6- تهنئته للأمير سعود ووالده الإمام عبدالعزيز بن محمد بن سعود بضم الأحساء، ومطلعها[3]:

تلألأ نورُ الحقِّ وانصـــدعَ الفجرُ وديجورُ ليلِ الـــشِّركِ مزَّقهُ الظُّهرُ

وتبلغ مئة وثمانية عشر بيتًا.

7- قصيدة يمدح بها الشيخ عبدالله بن أحمد آل عبدالقادر الأحسائي، ومطلعها[4]:

هل الدِّعْصُ إلا مـــا حواه إزارُها أو البانُ إلا ما أبـــانَ اهتصارُها؟

وتبلغ ثلاثة وثلاثين بيتًا.

=علماء الأحساء وغيرهم، توفي سنة 1260هـ. (سبائك العسجد، لابن سند: 93-96).

(1) تاريخ ابن غنام، 2/ 952.

(2) تاريخ ابن غنام: 2/ 952-956 ، عنوان المجد لابن بشر،146-148، ومشاهير علماء نجد، 108، وفي المخطوط: 206.

(3) تاريخه: 2/ 1023-1029، وعنوان المجد، لابن بشر، 151-154، وروضة الناظرين، للقاضي، 104-105، وفي المخطوط: 224-226.

(4) مختارات آل عبدالقادر، مجموعة شعرية لعدد من الشعراء، جمعها محمد آل عبدالقادر، المكتب الإسلامي، دمشق، 1383هـ، ص117-118، وشعراء هجر، 78-80، وتحفة المستفيد للعبدالقادر، 2/ 69.

8- قصيدة يمدح بها الشيخ عبدالله الكردي البيتوشي نزيل الأحساء، ومطلعها[1]:

حكتْ أدمعي يـــومَ الوداعِ الغمائمُ وشـــابةَ نوحي في الربـــاع الحمائمُ

وتبلغ أربعة وأربعين بيتًا.

9- قصيدة أهداها إلى صديقه أحمد بن رزق، ومطلعها:

إلام فـــؤادي يكتـــم الـــسِّر ذائبا وتنطـــقُ عيني بالذي هـــو كاتم

ويذكر أنها تزيد على مئة وثلاثين بيتًا.

10- تهنئة الأمير سعود بن عبدالعزيز بالحج[2]:

غياهبُ ليلِ الـــشِّركِ مزَّقهُ الفجرُ فأصبـــحَ دينُ الحـــقِّ طالِعهُ الغفر

وتبلغ ثلاثة وثمانين بيتًا.

11- قصيدة أجاب فيها الشيخ محمد بن أحمد الحفظي على قصيدته في تهنئة الإمام عبدالعزيز وابنه سعود بالنصر في معركة كربلاء، مطلعها[3]:

أمصباح مشكاة أم الكوكب الدريّ أســـمطٌ من المرجانِ فُصِّـــل بالدُّرِّ

وتبلغ مئة وأربعة أبيات.

12- قصيدة أخرى، وجهها إلى الوجيه أحمد بن رزق، وقد هنأه بزواجه عام 1189هـ، أشار إليها الدكتور عبدالله بن صالح العثيمين في مقالاته عن

(1) شعراء هجر، للدكتور عبدالفتاح الحلو: 80-83 .

(2) عنوان المجد، لابن بشر، 133-134، وبقيتها في الكتاب نفسه: 223-225.

(3) نفحات من عسير جمعه محمد بن إبراهيم الحفظي، ونسقه عبدالرحمن بن إبراهيم زين العابدين الحفظي، مطابع عسير، أبها 1393هـ، 66-70.

الشاعر، وأنه وجدها في أحد المصادر المخطوطة، واستهلها بقوله[1]:

أدر كؤوسًـــا من سُـــلاف المدام ولا تُكدرهـــا بفـــرط المـــلام

وتوجد بعض الأبيات المنظومة في بعض العلوم، والإجابة عن الألغـــاز الشـــعرية.

القصائد مرجع تاريخي:

إذا كان تاريخ ابن غنام أهم المراجع التاريخية التي سجلت تفاصيل المسيرة الدعوية للحركة الإصلاحية التي نهض بها الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وأحداث قيام الدولة السعودية الأولى التي ناصرت هذه الدعوة منذ انطلاقتها، فإن شعره جزء لا يتجزأ من هذا التاريخ، فهو يودع فيه أحداثًا تاريخية، ممزوجة بمواقفه الخاصة، وعواطفه المشبوبة تجاه الدولة الدعوة ورجالها من الحكام والعلماء وتلك القصائد المبثوثة في تاريخه على درجة من الأهمية التاريخية واللُّغوية؛ لما تشتمل عليه من تقييدات لأحداث السنين في ذلك العصر.

وهذه القصائد -مع ما تقصده من أغراض تقليدية- هي تسجيل لوقائع تاريخية، وانتصارات حققتها الدولة السعودية في بداياتها، التي احتضنت دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب في عاصمتها الدرعية، فكان ابن غنام مؤرخ هذه الحقبة بكل أحداثها، ومعلمًا يدرس العلوم الشرعية واللغوية في مساجدها، وشاعرًا يمتدح قادتها، ويرثي رجالها وعلماءها وأعيانها، وكل ذلك يعدُّ سجلًّا تاريخيًّا، أرقى من الشعر العامي الذي كان هو الأكثر آنذاك.

المدرسة الشعرية التي ينتمي إليها الشاعر:

ينتمي الشيخ حسين بن غنام للمدرسة التقليدية، المحافظة على عمود

(1) مراجعات في مصادر التاريخ السعودي، للدكتور عبدالله العثيمين، 31-58، عن نسخة الخراشي، ص28. ولم يورد الدكتور عبدالله العثيمين سوى أربعة أبيات فقط.

الشعر العربي القديم روحًا وبناء، ولكونه عاش في عصر الضعف الأدبي؛ فإن كثيرًا من سمات العصر قد طبعت شعره، كما طبعت نثره كذلك، كيف وهو -مع ذلك- لم يكن شاعرًا محترفًا؛ كما كان ابن مشرّف وابن سحمان في عصره، وإنما كان عالمًا لغويًّا وشرعيًّا، عاش في بيئة شاعرة (بيئة الأحساء) التي لم يعرف فيها عالم في عصره إلا وله قصيدة أو أكثر، بل ديوان، وامتد ذلك أربعة قرون: (الحادي عشر، والثاني عشر، والثالث عشر، ومطلع القرن الرابع عشر).

ويمثل ابن غنام «حلقة الوصل بين القرنين: الثالث عشر والرابع عشر، فقد حمل شعره خصائص شعر القرن الذي ولد فيه، وصبغها بألوانه التي اكتسبها من مناصرته لدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، ومن اختصاصه في علوم اللغة العربية، وأضاف جديدًا للقرن الذي توفي فيه؛ حيث بدأ شعر الدفاع عن الدعوة، فنهض به تلميذه ابن مشرّف، الذي استطاع أن يطوره ويجدد فيه»[1].

وقد نحا أصحاب السير منحى الثناء المبالغ فيه على قريحته وشاعريته، حتى قال عنه المؤرخ محمد بن عثمان القاضي: «الأديب البارع» ثم قال: «... وشاعرًا منطيقًا»[2]، والحقيقة أن أدبه لم يبلغ حد البراعة، ولا التمكن الشاعري، ولكنه النقد المحفلي، والديباجة المتوارثة، على أن ابن عثمان عاد فقال في وصف نثره: «وفيها سجع متكلف وممل»[3].

وسار في الثناء المحفلي صاحب شعراء هجر الدكتور عبدالفتاح الحلو فقال: «والشاعر طويل الباع في الغزل، رحب الكناف في فنونه» ... وقال: «وعبارة الشاعر قوية، وأسلوبه رائع، وغزله لطيف»[4].

(1) الشعر الحديث في الأحساء، للدكتور خالد الحليبي، ص68.
(2) روضة الناظرين، للقاضي، 1/ 104.
(3) روضة الناظرين، للقاضي، 1/ 105.
(4) شعراء هجر، 50.

ومثلهم الدكتور محمد بن سعد الشويعر في بحثه (ابن غنام: مؤرخ وتاريخ)[1]، حيث وصفه بسعة الخيال وخصوبته، والعمق اللفظي والمعنوي، والوصف التصويري، والتعبير الملحمي، والشاعرية المتمكنة، بينما يعود فيقول: «شعوره الديني يتغلب -أحيانًا- على خياله الشاعري، فتراه لا يتوسع في خياله التصويري». وغيرهم كثير.

والحقيقة أن أدب هذه الحقبة امتداد لأدب الضعف الأدبي، حيث فقد معظم الشعر معالم الحياة: محدودية في الأغراض، وانصباب على أحجال البديع التي كبلت عبقريات الشعراء، وأرهقت قرائحهم فيما يستثير إبهار العقل، ولا علاقة له بالشعر الذي يفيض عن الوجدان، ويكشف حقائق الوجود، ويعبر عن مكنونات القلب، ويوثق التجارب الإنسانية العليا.

وإذا كان ابن غنام اشتهر وعرف مؤرخًا فإن قدراته العلمية واللغوية، وتبنيه دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب جعلت منه أبرز شعراء النظم في عصره.

أغراضه الشعرية:

ما حُفظ لابن غنام من قصائد في مجملها لا تخرج عن أغراض الإخوانيات، والمديح، والحماسة، والرثاء، مع ما يتداخل مع هذه القصائد من إيماءات لبعض المخالفات العقدية، والأحداث التاريخية، المتصلة بدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، متخذًا من اللغة الدينية لسانه الشعري الأوحد، فهو مؤرخٌ ومعلمٌ وشاعرٌ يمتدح سيرة الأئمة والعلماء، ويرثيهم، ويُسجل بإعجاب ما تحقق من انتصارات، وصديق يتبادل الإخوانيات مع شعراء عصره بود، أو يقارع آخرين بنقائض شديدة اللهجة.

(1) ابن غنام مؤرخ وتاريخ، مقال، د.محمد بن سعد الشويعر، مجلة الدارة، السنة: 4، العدد: 1، ربيع الآخر، 1398هـ.

شعر المديح والإخوانيات:

تمثل الإخوانيات ثُلُث ما ورد من شعر ابن غنام، والثلث كثير، (أربع قصائد)، وليس ذلك بغريب، فهو في وسط شعري كان يحفل بالإخوانيات بين الشعراء، حتى لتكاد تشكل نصف دواوينهم؛ وذلك بسبب شيوع العلم والقدرة على الصياغة اللغوية، وكثرة تداول الشعر في مجالسهم، فأصبحت المراسلات الشعرية سمة من سمات العلماء المبرزين.

وإخوانياته جميعًا تبدأ بالغزل، سواء بالمحبوبة المتوهمة، أم بالقصيدة الواردة، ثم يلتفت إلى التعبير عن العواطف الأخوية، والشوق إلى اللقاء، ثم يضمن بعضها رسالته في الحياة، وهي حماية جناب التوحيد، والتعرض لما أصاب الأمة من ضعف في التمسك به.

ولا تكاد تخلو قصيدة من قصائد ابن غنام من مديح، فهو في إخوانياته يمدح أصدقاءه العلماء، وفي انتصاره للدعوة يمدح قادتها من آل سعود وآل الشيخ، وفي رثائه يمدح المرثيين، وفي نقيضته أفاض على شيوخ الدعوة وساستها من المديح ما يفقأ به عيني نقيضة خصمه، حتى إجابته عن بعض الألغاز الشعرية لم تخل من مديح.

وكون ابن غنام شاعرًا محافظًا بل تقليديًّا جعله يحافظ على تقاليد المدح القديمة، بإفراد الممدوح بالصفات المبالغ فيها، وحشد جميع صفات الكمال الخلقي لإلصاقها بممدوحه، مستخدمًا الألفاظ القديمة، والصور التراثية ذاتها، يقول مادحًا الشيخ محمد بن أحمد الحفظي في جوابه عن قصيدته في تهنئة الإمام عبدالعزيز بالنصر[1]:

(1) آل حفظي، محمد، نفحات من عسير، 66.

تبـــدَّى فأبـــدى في البلاغـــةِ آيةً ... تدلُّ لمنشـــيهِ على السَّـــبقِ في الشعر
وتنبئنـــا عـــن معجـــزٍ بعروضه ... وإلجامـــه جمحَ المُعـــارضِ بالحصر
وتفصحُ عن شـــأو بعيـــدٍ مرامه ... لدائمـــه يبدو القصـــورَ مع القَصر
فأنى يضاهي الشمسَ محلولك الدجى ... وتحكي عقودَ الـــدُّر صمٌّ من الصخر
فـــما قبلـــه الأيـــام خطَّـــت لالئا ... ولا فُضَّت الأرقـــام عن أنجم زهر

وتقوم بعض القصائد على المديح، وقد تتداخل الأغراض في النص الواحد، فهو في نقيضته مع ابن فيروز يثني على أئمة الدولة السعودية، فيقول[1]:

لقـــد رُفعت أعلامُهـــم بأميرهم ... وأبناه أســـدُ الحرب بل بأسهم أسطى
بهم أسفرت شمسُ الهدى بعد دجنها ... وزال ظـــلام الشرك من بعد ما غطى
ذوو الحزمِ والتسديدِ والعزمِ والنهى ... وأهـــل المعالي والفخـــار بهم نيطا
يذودون عن ورد الدنايا نفوســـهم ... ويســـخونَ في نيلِ المزايا بها سفطا
فقد بذلـــوا في ذا النفوس فأحرزوا ... به العز يا طوبى لمن أدرك القســـطا

ولم يكن ابن غنام طَلَّابَ نوال من مدائحه، بل هو صاحب رسالة، يمدح من رفع راية الدولة السعودية، ودافع عن حماها؛ ولذلك يبدو الصدق ظاهرةً ملموسةً في تلك المدائح التي أزجاها لأئمة الدولة السعودية وعلمائها مهما قصرت به القريحة عن التعبير.

(1) تاريخ ابن غنام، 955.

النقائض:

وعلى لسان ابن غنام بدأ -فيما يظهر- شعر النقائض الدينية في الأحساء بنقيضته مع ابن فيروز، فقد ناقضَ تلميذُه ابنُ بُشيّر الشاعرَ السيد يحيى بن المطهر[1]، وناقض تلميذُه الآخر ابنُ مشرّف عثمانَ بن منصور سنة 1218هـ، وعثمان بن سند سنة 1220هـ[2]، كما ناقض ـ فيما بعد ـ الشيخ عبدالعزيز العلجي الشيخ سليمان بن سحمان[3].

والدارس لهذه النقائض لا بد أن يتنبه إلى ما يطلقه العلماء الشعراء المتعاصرون؛ بعضهم على بعضهم، من أحكام وألفاظ لا تحمل على ظاهرها أبدًا، بل هو مما حدث ويحدث بين المتعاصرين، والمعاصرة حجاب كما يقال، والخلاف بينهم قد يكون في أمور يتسع لها صدر الخلاف أحيانًا، وقد يكون بسبب تأول، أو خطأ، والسلامة من الخوض في ذلك كله واجبة.

والنقيضة التي أطلق بها ابن غنام هذا الفن الطائية التي ردَّ بها على ابن فيروز، ومطلعها[4]:

أنامل كفِّ الســـعد قد أثبتت خطا بأقلام أحكام لنـــا حرّرت ضبطا

وسار ابن غنام على نهج النقائض الأموية، إذ يجاري خصمه في البحر والقافية، ويتعرض لمعانيه «فيردَّها أو يردَّ عليها معنى معنى، يحاول أن ينقضها، وأن يجعلها أنكاثًا من بعد قوَّة»[5].

(1) أديب أحسائي مغمور، مقالة، حمد الجاسر، العرب، المحرم وصفر 1408هـ، ص275.

(2) ديوان ابن مشرّف، مكتبة الفلاح، الأحساء، الطبعة: 4، ص29، 30، 52.

(3) انظر دراسة مفصلة في: الشعر في الأحساء في القرن الرابع عشر الهجري، للدكتور خالد بن سعود الحليبي، رسالة ماجستير، كلية اللغة العربية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1410هـ، ص290-298.

(4) تاريخ ابن غنام، 1/ 189.

(5) التطور والتجديد في الشعر الأموي، للدكتور شوقي ضيف، دار المعارف، الطبعة: 7، 1981م، ص169.

وقد بدأها بالتعرض لقصيدة الخصم في صورة مناقضة للمقدمات الغزلية، حيث جعل عروس خصمه من بنات الهوى، ويقصد بها قصيدته، وقد كثر في شعر القرون الثلاثة التي سبقت القرن الرابع عشر الهجري التغزل بالقصيدة، سواء قصيدة المرسِل، أم المرسَل إليه، حتى غدت ظاهرة نجدها عند شعراء هجر بوضوح.

وانطوت على المعاني التي يرددها شعراء الدعوة، من دحر للشرك، واتهام بالضلال والبدع، والبعد عن الحق، وأحيانًا التكفير المتبادل، وهو ما وجد -بعد ذلك- في نقائض الشعراء مع الشيخ سليمان بن سحمان.

ومن الطبيعي أن تطول النقيضة؛ لأن شاعرها يقصد إلى هدم معاني قصيدة خصمه بيتًا بيتًا؛ ولذلك فهو يأتي بأجزاء من قوله في سياق النقض والرد، مثل قوله[1]:

ومـــا ذاك إلا معتـــدٍ ذو حماقـــةٍ ... توغَّلَ في الإبـــلاسِ واغترَّ وانغطَّا
فويلٌ له يـــومَ القِصاصِ وحيثُ لا ... مناصَ، وأهلُ النَّارِ تسرُطهم سرْطا
سمت عصبةُ التوحيدِ عمَّا يشينُهم ... وعن وصفِهم بالكفرِ لكنَّه الأخطى
أيوصفُ بالطاغوتِ من جدَّدَ الهُدى ... وأحيا أصول الدِّينِ والسنةَ الوسطى

فمن الواضح أن ابن فيروز أطلق لفظ (الطاغوت) على خصمه، وإن لم نعثر على قصيدته؛ فمن المتوقع أن تضيع قصائد خصوم الدعوة بعد انتصارها، كما حدث للقصائد التي ناهضت دعوة المصطفى ﷺ بعد أن أظهر الله دينه.

الحماسة:

من الطبيعي جدًّا أن تجد الحماسة صليلها وهديرها في شعر ابن غنام، وهو

(1) تاريخ ابن غنام، 2/ 954، ومعنى تسرُطُهم: تبتلعهم.

الذي عاش أتون الحرب المستمرة بين مؤيدي الدعوة وخصومها، وأخذ على عاتقه أمانة التسجيل التاريخي لها في أول سفر يخلد أمجادها، فلا غرو أن يفرد لها بعض قصائده، بل وأن تتسلل إلى بعض قصائده الأخرى.

وتحضر اللغة الجاهلية، والعباسية، والإسلامية، وكأنها رُقعٌ في ثوب شعري من العصور الوسطى حين يقول[1]:

فكم جرَّ أرسانَ الجيادِ على العِدا ... فصار لها في أرض أعدائه طُمْرُ
عليها رجالٌ في الملاقاة صبَّرا ... كأنهمُ من فوقها أنجمٌ زُهرُ
إذا شنَّ يوما غارةً هزبريةً ... يحلُّ على أعدائه القتلُ والأسرُ
تمزقهم أسيافه وتشكهم ... بطعن على الأكتاف خطِّيُّه سُمرُ
فكم موطنٍ فيه تسيلُ دماؤُهم ... من القتلِ عمدًا إنَّ قتلهم هَدْرُ

وقد يحث أئمة الدولة السعودية لدخول أراض جديدة؛ لبناء الدولة مشيرًا إلى الخير الذي نعمت به القطاعات التي دخلت تحت مظلتها، ومن ذلك قوله[2]:

إليك القرى والمدن ترنو عيونها ... تمناك ترعاها فتملؤها قسطا
وترتاحُ من عُليا سعودٍ ونصرِه ... وتغبط نجدا والحسا الآن والخطا
فجهِّز له المنصورَ بالبشر تلقه ... وتفرشَ إكرامًا لأقدامه بُسطا

وقد لحظت -بوضوح- ما لحظته الدكتورة نورية الرومي في دراستها لشعر ابن مشرّف وهو يسجل انتصارات الإمام فيصل بن تركي «أنه دائمًا يخلط المديح بوصف الحرب، والتهنئة بالنصر، حتى في قصائد الرثاء التي كان يقولها من حين لآخر»[3].

(1) عنوان المجد، لابن بشر، 224.

(2) تاريخ ابن غنام، 956، والخط هي القطيف، وما حاذى الساحل الشرقي.

(3) الرومي، نورية، الحركة الشعرية في الخليج العربي بين التطوير والتقليد، المطبعة العصرية،=

الرثاء:

وفي الرثاء تطالعنا قصيدتان، إحداهما لا تتجاوز عشرة أبيات، يرثي فيها جندًا من قومه رثاء جماعيًّا، ويبث حزنه العميق عليهم، قسمها نصفين، وصف في أولها حالة الحزن، وألم الفقد على فراق أصحابه، بمعان مألوفة، ولكنها صادقة، منها قوله[1]:

عين جودي بواكف هتان ... واسكبي عبرة من الأجفان
وأفيضي على الخدود دموعًا ... تحكي صوب الغمام في الهملان
واهجري لذة الكرى في الدياجي ... قد كفى ما جرى من الأحزان

وجعل النصف الآخر لإغداق الصفات المثلى عليهم؛ وكأنه يسوق مسوغات ذلك البكاء، فيقول:

لهفَ نفسي على فراقِ صحابٍ ... قدْ تتالوا بطاعةِ الدَّيان
فهُدوا للجهادِ صدقًا وباعوا ... غاليَ النفسِ في رضا الرحمن
أسرعوا في امتثال أمرٍ إله ... إذ دعاهم إلى قصورِ الجنان
صدَّقوا بيعة عليه وأوفوا ... ومضوا مسرعين للغفران

وأما رثائيته للشيخ محمد بن عبدالوهاب فهي من أهم قصائده على الإطلاق، من حيث القيمة التاريخية، وتسجيل الأثر الذي شهده بنفسه لوفاة الشيخ المجدد ﷺ وقد ذهب فيها مذاهب شتى، فهو يبدأ كما تبدأ مراثي العلماء، من الفزع إلى الله تعالى من الخطب الجلل، وكسوف شمس العلم، وانطفاء الشهاب الهادي، وانحسار بحر العلم، ثم يسوق مدائح كمالية يدفعه حبه للادعاء بتفرد ممدوحه

=الكويت، (1980م)، ص37.

(1) تاريخ ابن غنام، 2/ 771.

المتوفى بها؛ مثل قوله[1]:

ســـما ذروةَ المجدِ التي ما ارتقى لها ســـواه، ولا حاذى فناها سميدعُ

حتى قال:

لقد وجد الإســـلام يـــوم فراقه مصابًـــا خشـــينا بعـــده يتصدعُ
وطاشت أولو الأحلام والفضل والنهى وكادت له الأرواح تـــترى وتتبعُ
وطارت قلوب المســـلمين بيومه وظنـــوا بـــه أن القيامـــة تقرعُ

ومع عظم المصاب فإنها تبقى مبالغة نجد مثلها في بعض مدائحه، حين يصر على تفرد ممدوحه بتلك الصفات، لا يشاركه فيها أحد.

ولكني أتلمس الصدق العاطفي، الذي كشف عنه طبع شعري واتاه في آخر النص، ففاض بمثل قوله[2]:

فما لي أرى الأبصـــار قلّص دمعها وليســـت على فقداه تهمي وتدمعُ
وما لي أرى الألباب تبدي قســـاوة وليســـت على ذكراه يومًـــا توجَّعُ
لقد غـــدرت عينٌ تضـــن بمائها عليه، وكبـــد قد أبـــت لا تقطعُ

هذا هو الرثاء، التعبير عن الفقد.

ولا شك أن وفاة العالم ثلمة في الدين والدنيا، فكيف إذا كان مثل الشيخ محمد بن عبدالوهاب جزاه الله عنا وعن الإسلام والمسلمين خير ما يجزي داعية عن قومه.

(1) تاريخ ابن غنام، 2/ 903.
(2) تاريخ ابن غنام، 2/ 904.

الغزل:

لم يكن الغزل غرضًا لابن غنام، وإنما هي مقدمات لبعض قصائده، يجاري فيها الشعراء الذين نهجوا هذا النهج، وقد يطيل فيه حتى يكاد يطغى على الغرض الأصلي، وهو يصف المحبوبة وصفا حسيًّا، بمواصفات المرأة المثال في الشعر الجاهلي، فمجمع الرمل رِدفها، والبان قوامها، والفجر جبينها، والورد خدها، والليل شعرها، والخمر ريقها، ولا مزيد، ولا ابتكار للصورة، ولا إضافة[1]، يقول متغزلًا في مقدمة مدحة إخوانية[2]:

على أنــه بدرٌ لــه الخِـدرُ هالة ... ونورٌ لــه زاهي الحُـدوجِ كمائمُ
أرادت تحاكيــه الغزالــةُ إذ بدت ... ولكن أبت عن ما تــرومُ المعاصمُ
وفرعٍ يضل الخلــقَ داجي ظلامه ... وفــرق إليــه بالهدايــة حاكمُ
وثغرٌ كأن الأريَ والشــهدَ ظلمُه ... حمتْ وردَه مــن جانبيــهِ أراقمُ

وهنا يُلحظ المعاني التي يفخر بها العرب، من حماية لأعراضهم، وتمنع نسائهم، حين يصف حماتها بالأراقم.

وقد يغادر الوصف الجسدي إلى تخيل ما يحدث بين الحبيبين من وصال، فيصف اختلاسات الزمان، وتسهيد الأعين، ولواعج الغرام، ومن ذلك قوله[3]:

فكَــم قد رَكَضنــا في ميادينِ لَهوِها ... جِيادَ هوىً ما خِيــلَ منها نِفارُها
وأوقــاتِ لــذّاتٍ قضينا بســوحِها ... وأيــامِ وَصلٍ واصَلَتهــا قِصارُها
عَفــا الدهرُ عنها فانتهزنا اختِلاسَــها ... فلــم يوقِظِ العَينــينِ إلا غُبارُها

(1) شعراء هجر، للدكتور عبدالفتاح الحلو، 78، وانظر مقدمته الغزلية في قصيدة الحفظي، نفحات من عسير، 66.

(2) شعراء هجر، للدكتور عبدالفتاح الحلو، 81.

(3) شعراء هجر، للدكتور عبدالفتاح الحلو، 79.

مَضَت وانقَضَت والوجدُ باقٍ فَلا الأَســـى مُعيدٌ لِما أقوى فيُرجـــى انجِبارُها
فيـــا مَن لِعَينٍ حالَفَ السُّـــهدُ جَفنَها لِفَقـــدِ حبيبٍ لا يُكَـــفُّ انهِمارُها

وأنى لشيخ وقته بين المحراب والكتاب أن يعيش كل هذه الأحاسيس، ولكنها معانٍ مجلوبة من ديوان العرب وحسب.

ثم يتخلص من الغزل بهدوء وسلاسة ـ كما كان الشعراء يفعلون – ليدلف إلى مقصوده وغرضه الشعري، فيقول[1]:

فيا مَن لِعَينٍ حالَفَ السُّـــهدُ جَفنَها لِفَقدِ حبيـــبٍ لا يُكَـــفُّ انهِمارُها
كأنَّ هَتُـــونَ المُزنِ جـــادَت بِوَبلِها مَجاري عيـــوني يومَ شَـــطَّ مَزارُها
كأنَّ الحَشـــا من لاعِجِ البينِ مُخبِرٌ بأن قـــد جَفاهُ ذُو المَعـــالي وجارُها
فعِلمِي بصَبري وَالحَشاشَةِ والنُّهى عَشِـــيَّةَ شُـــدَّت للرَّحيلِ مِهَارُها
إِمامُ الهُـــدى ربُّ النَدى مُجزِلُ الجِدى كـــما لِلعِدا منـــهُ دَوَامًـــا دَمَارُها

ليمضي في غرضه الأصلي بعد ذلك.

النظم العلمي:

نظرًا لتعلقه بعلوم اللغة نظم فيها أبياتًا قليلة من القواعد النحوية، مثل قوله[2].

(نَعَـــم) لتقريـــر الـــكلام الذي مـــن قبلها ســـيقَ كـــما وضح
كـــما (بـــلى) تـــأتي لإثباتـــه فاقنـــع بـــما قلت فقـــد صحح

(1) شعراء هجر، للدكتور عبدالفتاح الحلو، 79.
(2) علماء الأحساء، للعصفور (مخطوط)، 172.

وهو ما وجد عند عدد من شعراء زمانه، الذين كانوا علماء أكثر منهم شعراء.

وقد حفظت لنا المخطوطات مجاراته لبعض شعراء بيئته، وما شاع في تلك العصور من تحويل الملكة الشعرية إلى معرض للقوى العقلية، وليس للتعبير النَّدي الشاعري، ومن ذلك الألغاز في الأشعار، مثل قول الشيخ عبدالله البيتوشي مخاطبًا ابن غنام[1]:

يا ســـاحبًا فضل ذيل المجد دمت لنا ... في حـــل كل عويص جـــل متكلا
متى يكـــون وجوب النصب عندهم ... فيـــما أتى القـــوم إلا زيـــدًا البطلا
وكيف ذاك وأهـــل النحو قد عرفوا ... بأنهـــم رجّحـــوا في ذلـــك البدلا

فأجاب ابن غنام:

يا حائـــزًا قصباتِ الســـبقِ منفردًا ... ومَن عُـــلاه على هامِ السِّـــماكِ عَلا
فُقتَ الأنامَ فمن ذا يقفو شـــأوَكُمُ ... في كلِّ لفظٍ عويـــصٍ مُعضلٍ نَزَلا
خُذِ الجوابَ وجوبُ النَّصبِ عندهمُ ... في (زيـــد) إن كان محكيًّـــا لمن عقلا
فـــإن يكـــن غـــيرَ محكـــيٍّ فإنهمُ ... قـــد رجَّحوا كونَهُ يا ســـيدي بدلا

وهكذا يتبادل العلماء إخوانياتهم ممزوجة بالمعارف التي ألفوها، حتى أصبحت جزءًا منهم، كما أنها تشير إلى مدى الاحترام المتبادل بينهم أيضًا.

وقد شكلت اللغة العلمية جزءًا من قاموسهم الشعري، حتى عبّروا بها عن معانٍ لا علاقة لها بالعلم نفسه.

(1) علماء الأحساء، للعصفور (مخطوط)، 172.

أهم خصائص الشاعر:

المطالع والخواتيم:

يبدو ابن غنام في بناء قصائده ذا منهجين مختلفين؛ فحين يخلص لفنه فإنه يجري مجرى الشعراء الذين في عصره، وفي بلد نشأته، حيث كان شعراء الأحساء في أكثر شعرهم يبدأون مطالعهم بالغزل، أو بمقدمات فنية تمهد للموضوع[1]، ومن ذلك قوله[2]:

هل الدِّعصُ إلا ما حـــواه إزارُها ... أو البـــانُ إلا ما أبـــانَ اهتصارُها
أو الفجـــرُ إلا ما بدا مـــن جبينها ... أو الـــوردُ إلا ما جـــلاه احمرارُها
أو الليلُ إلا من مُعســـعِسِ شعرِها ... أو الخمـــرُ إلا ظَلْمُهـــا لا عُقَارُها
أو الســـهم إلا ما تريـــشُ لِحاظُها ... أو البيـــضُ إلا جفنُهـــا لا غرادُها
مهاةٌ تُريكَ الشـــمسَ طلعةُ وجهِها ... إذا أســـفرتْ يجلو الظلامَ سُفورُها

وحين يخلص لدعوته فإنه يتجرد من تلك المقدمات التقليدية، ويباشر موضوعه[3]، وهو ما شاع عند شعراء الدعوة بعد ذلك، وربما كان رائدًا فيه، ومن ذلك[4]:

تلألأ نور الحقِّ وانصـــدع الفجرُ ... وديجورُ ليلِ الـــشركِ مزَّقهُ الظهرُ

(1) راجعها في تحفة المستفيد، لمحمد آل عبدالقادر، 2/ 361، ونفحات من عسير، لمحمد بن إبراهيم آل حفظي، 66، وشعراء هجر، 80.

(2) شعراء هجر، للدكتور عبدالفتاح الحلو، 78، وفيه: غرادها، بينما الصواب: غرارها كما في: مختارات آل عبدالقادر، 117. ومعاني الكلمات الغريبة في النص: الدّعص: كثيب الرمل المجتمع، والظّلم: ماء الأسنان وبريقها، والعقار: الخمر، وأراش السهم: ألزق عليه الريش.

(3) تاريخ ابن غنام، 1/ 67، 71، 86، 155، 190، 237.

(4) تاريخ ابن غنام، 2/ 1023.

وشمسُ الأماني أشرقت في سعودها ولاح بأفقِ الســـعدِ أنجمهُ الزُّهرُ

كما تلحظ -بوضوح- روح التدين التي عرفت عند شعراء الدعوة، كابن مشرّف وابن سحمان فيما بعد، وتظهر أول ما تظهر في بعض المطالع، مثل قوله[1]:

إلى الله في كشـــفِ الشـــدائدِ نَفزع وليس إلى غـــيرِ المهيمـــن مفزَعُ

ومن مظاهر التدين أنه تابع معاصريه أيضًا في ختام بعض القصائد بالصلاة على النبي ﷺ؛ وتتخذ شكلًا متقاربًا، حتى تكون مستنسخة في مثل قوله[2]:

وأزكى صلاةٍ يُبهرُ المســـكَ عرفُها تعمُّ رســـولًا في الـــورود لنا فرطا
كذا الآل والأصحاب ما خط كاتب ونمقَ في مرســـومه الشكلَ والنّقطا

وقوله في ختام قصيدته التي هنأ فيها الأمير سعودًا؛ بمناسبة قدومه الأحساء[3]:

وأزكى صلاة يبهر البدر حســـنها على خير مبعوث بـــه رفع الإصرُ
كذا الآل والأصحاب ما جادت الصبا على الروض مطـــولا فعطَّرها الزهرُ

والقصيدة التي لا تُختتم بالصلاة على النبي ﷺ، تختتم بالدعاء، مثل قوله[4]:

جزى الله هذا الشـــيخَ أفضل ما جزى إمامًا أقام الديـــنَ، وانجبر الكسرُ

ومهما آمنا بأن لكل شاعر معجمه اللغوي، ومجاله الخيالي فإن التكرار في المعاني والألفاظ والصور ظاهرة في شعر ابن غنام، وتدل على أنه لم يكن ذا قريحة غنية، بل كان يمتح من حوض واحد، لكل غرض يطرقه.

(1) تاريخ ابن غنام، 2/ 902.
(2) تاريخ ابن غنام، 2/ 956.
(3) تاريخ ابن غنام، 2/ 1029، وانظر ختام قصيدته في الحفظي، نفحات من عسير، 70.
(4) عنوان المجد، لابن بشر، 134.

الصنعة البديعية:

كل من تعرض لأسلوبه الشعري والنثري يدرك غرامه بالبديع، وألوان البيان، من استعارة أو تشبيه أو مجاز، كقوله[1]:

مرابــع فيهــا للطيــور مراتع   وترقص فيهــا النسر والحرُّ والصقرُ
بربِّ طعيس لا طعيس تقشَّــعت   ســحائبُ رجز بالمنايــا لها شرُّ
لقد حــقَّ وعــد الله، واعتزَّ جنده   فمن كان ذا نذر، فقد وجب النَّذرُ

ففي كل بيت نوع من أنواع البديع، يجاري بها التوجه الفني الذي ساد في عصره.

والدارس لشعره يجد أنه حين ينحو نحو النظم في وسط قصائده يبدو لديه ضعف التأليف والصور المستهلكة، والقافية المجتلبة، ومثال ذلك قوله[2]:

فيا ابن ســميِّ المصطفى وســميَّه   تعلــم حماك الله من مســلك وعر
بأن ذرى (التوحيد) غُرٌّ شــوامخ   قواعدها معلومــة عند من يدري
هي الأمــر بالتوحيد والحث بعده   ولاء وتكفــير لذي الــترك للأمر
وأضدادها في الحكــم معهن أربع   ثمان بها التوحيــد يثبت في الصدر

ونفسه طويل، فمع قلة القصائد التي وصلتنا فإن أكثرها مطولات.

الأسلوب:

ابن غنام مغرم باللغويات، فليس غريبًا حين يريد أن ينحت قصيدته تمثالًا فنيًّا قد يكون أجمل ما يستطيع أن يجلبه - بطاقته الخاصة - من صلصال اللغة، ولذلك قد يسمح للغريب أن يتداخل مع نسيجه الشعري؛ لمنح النص فخامة

(1) تاريخ ابن غنام، 2/ 1025.
(2) نفحات من عسير، 70.

أو غرابة تجعله ينتمي إلى العصور المتقدمة، وتغطي أحيانًا على عادية الفكرة والمعنى، وبخاصة تلك القصائد التي كانت بينه وبين علماء في اللغة؛ كآل عبدالقادر، وآل حفظي، وابن فيروز، والبيتوشي، كما في قوله[1]:

رحلن من الأحسا فشبَّت لظى الجوى ... ففي داخل الأحشـــاء منها مياسمُ
تجود بهم هُـــوجُ النواجي لدى السُّرى ... مهامهَ نهجُ السَّـــير منهن طاســـمُ
عـــلى أنه بـــدر لـــه الخِـــدر هالةٌ ... ونـــورٌ له زاهـــي الحُـــدوجِ كمائمُ

فالديباجة جاهلية الشكل تشفُّ عن قصدٍ في التجويد البنائي للقصيدة؛ لعلمه أنها محل نقد وتحليل.

ومن الملحوظ حرصه «على ما تعارف عليه القوم مما يعدُّ في نظرهم من سمات الشعر الجيد، ومن بدء بالغزل، واهتمام بالبديع، وتلوين في الأسلوب، وإكثار من أنواع البيان، بينما يهمل ذلك حين يكتب في مناصرة الدعوة؛ وذلك لانصرافه انصرافًا تامًّا للمعاني الجادة، وحين يرثي أو يدافع تظهر حرارة عاطفته في تعابيره وصوره»[2]. يقول معبرًا عن فرحته بالنصر[3]:

وهبَّت رياح النـــصر والفوز والهنا ... فحُقَّ لنـــا منها البشـــائر والبشرُ
وروَّحَ روحُ الأنـــس كل موحـــد ... ففي قلبه ســـكر، وما مسَّـــه خمرُ
كأنَّ به من نشـــأة اللطف نشـــوة ... ترنَّح منها العطفُ واستحكم السُّكرُ
وغنَّت بروضـــات السرور بلابل ... يُرجعـــن ألحانًا يهشُّ لهـــا الصخرُ

(1) شعراء هجر، للدكتور عبدالفتاح الحلو، 80–81. ومعاني الكلمات: المياسم: آثار الوسم، والوسم: أثر الكي، والنواجي: جمع ناجية، وهي الناقة السريعة، والسرى: السير ليلًا، والمهامه: جمع مهمه وهي المفازة البعيدة، وطاسم: مندرس، والحدوج: جمع حِدج، وهو: الحمل.

(2) الشعر في الأحساء، للدكتور خالد الحليبي، 68–69.

(3) تاريخ ابن غنام، 2/ 1024.

عفوية وطبع شعري، وإعادة صياغة لموروث الشعر العربي القديم بصور معتادة جدًّا، إذ لا يعني الشاعرَ هنا سوى التعبير عن مشاعره بأقصر الطرق، وكأنه لا يجد قيمة للإبداع في مثل هذه المواقف، بينما يحتشد فنيًّا لتلك التي يُوردها على علماء اللغة وشعراء العلماء.

بل أحيانًا تتحول قصائد الدعوة إلى منظومة علمية مباشرة، في وسط قصيدة شعرية، مثل قوله[1]:

فمنْ يـــدْعُ مخلوقًا ضعيفًـــا فإنَّهُ ... يحرِّقـــهُ إن ماتَ، مـــا رجَّعَ الجمرُ
ومن يستغث بالخلق أو يستعن بهم ... فقد مسَّـــه من فعلِهِ ذلـــك الضُّرُّ
وأخـــبرَ أن الذَّبـــحَ للهِ وحـــدَهُ ... لأن صـــلاةَ العيدِ قارنهـــا النَّحرُ

على أن من نِتاجه الشعري ما هو جزء من الوسط الشعري الذي يعيشه آنذاك، الذي كان ذا «ارتباط وثيق بأدب العصرين: المملوكي والعثماني، ذلك الأدب الذي غلب عليه السجع والجناس والطباق والمقابلة والتورية والتصريع والترصيع، وما إلى ذلك من تزاويق لفظية مما يمجها الذوق؛ لما فيها من إفراط، ولأنها غدت غاية لا وسيلة»[2].

وقصائد المطولات الرثائية أو الإخوانية تصل بعضها إلى أكثر من مئة بيت، وأهم المطولات رثاؤه للشيخ محمد بن عبدالوهاب، وقصيدته إلى صديقه الكريم الشهير أحمد بن رزق، إذ تبدو فيهما قدرة ابن غنام اللغوية، وقوة تعبيره عن المشاعر الإنسانية البشرية، في حنينه إلى بلدته الأحساء، وتقع الأخيرة في أكثر من مئة وثلاثين بيتًا، منها:

---

(1) عنوان المجد، لابن بشر، 134.

(2) الحركة الأدبية في المملكة العربية السعودية، للدكتور بكري شيخ أمين، دار العلم للملايين ببيروت، 1985م، ص201.

إلام فـــؤادي يكتـــم الـــسِّر ذائبًا ... وتنطـــقُ عيني بالذي هـــو كاتم
وكيف أكنُّ الوجدَ والســـهد والأسى ... وسُـــقْمي وتعذيبي عـــليَّ حواكم
وحتَّام طـــرفٌ يقصر الطرف خطوه ... وتثنيه عن زهو التصابي شـــكائم
وبالقلـــب نـــيران الهيـــام تثيرها ... عواصف شـــوق هنَّ منها ضوارم
عجبتُ لقلبي كلّما شـــاد في الهوى ... يهـــدُّ اصطباري فهو بـــانٍ وهادم
رعى الله من حَلُّوا سويداء مهجتي ... وطرفي لهم معْ شـــقة البعد شائم
ألا ليت ربَّ الحسن والظرف عالمٌ ... بأني لـــه نصب على الحـــال دائم

ويظهر في النص الرغبة الشديدة في الإكثار من البديعيات، كالطباق في: «يكتم وتنطق»، «وبان وهادم»، وتوظيف الألفاظ العلمية مثل المصطلحات النحوية في قوله: «نصب على الحال» في التعبير الشعري. وهي من أبرز سمات شعراء هذه الحقبة والتي تلتها وخصائصها الأسلوبية.

وظاهرة وجدت في شعر شعراء الدولة السعودية الأولى عمومًا، وهي إضفاء الأوصاف الدينية على مفردات الحرب، مثل: الجهاد، والشهادة، والفتح، وتخصيص لفظ (المسلمين) لأتباعهم، و(العصاة) على خصومهم، وإطلاق لفظ الإمام على الحاكم، ونحو ذلك، ولعل النص التالي يكشف عن هذه اللغة الخاصة، التي لم تكن موجودة بهذه الكثافة في شعر المتقدمين، ولا المتأخرين، يقول[1]:

لقد أحـــرزوا خُصَلَ الفخار وأبرزوا ... من الديـــن مطويًّا، فـــلاح له نشرُ
فأضحت بهجـــر شرعة الحق غضة ... وصوّح نبت الـــشرك، وانقطع البذرُ
بهـــدي إمـــام المســـلمين ومهده ... أضاءت نواحيها فأرجاؤها سُـــفرُ

(1) تاريخ ابن غنام، 2/ 1027.

تهنَّ بهـــذا الفتـــح يا ابـــن محمد فقـــد تمَّ للديـــن القويم بـــه فخرُ
هنيئًا لك الفتحُ الذي فُتحت له السـ ـماوات، والفردوس، وافتخرت هجرُ
هنيئًا لك الفتح الـــذي طأطأت له جباه الملوك الصيـــد، واتضع الكبرُ

وليس بغريب مثل هذه اللغة على شاعر يعيش فكرة الدعوة في كل لحظات حياته، ويعدُّ جُزءًا من منظومة الحكم الذي قام على أساس نشر التوحيد، ومنابذة البدع، وربط التوسع السياسي بذلك.

ويبدو في هذا النص -أيضًا- التكرار اللفظي في كلمة (فتح)، الذي يؤكد الفرح الكبير بما تحقق من نصر.

ابن غنام ناثرًا:

لم يكن ابن غنام كاتبًا محترفًا، ولم يقصد أن يكون له إنتاج نثري يصنف أدبًا، فلم يصلنا له رسائل أدبية، ولا مقامات، ولا خواطر، ولا توقيعات، وكل تلك الفنون كان لها نماذج عليا في العصور المتقدمة على عصره، وكل ما ورد من نثره الأدبي هو ما يمكن استجلاؤه من خلال تتبع أسلوب التأليف في تاريخه، وكتابه العقدي، وحسب. وهو ما أشار إليه الدكتور محمد الشامخ وهو يتحدث عن المؤلفات التاريخية في حقبة تاريخية تالية للحقبة التي عاشها ابن غنام، (1900 - 1945م)، حيث «كانت تحرر حينئذ بأسلوب يشبه الأسلوب الأدبي؛ من حيث استخدام السجع، وإطلاق العنان أحيانًا لسبحات الخيال والعواطف الذاتية». ودلل على ذلك من نثر ابن غنام، وأنه «لم يكتف هنا بتسجيل الأحداث التاريخية، بل أراد أن يصور الخواطر النفسية والصراع الإنساني، وإذا أباح لنفسه كذلك أن يفسر حوادث التاريخ تفسيرًا ذاتيًّا، وأن يضيف إليها ما رأى أن من الممكن أن يقع حدوثه، فقد جاء أسلوبه التاريخي شبيهًا بالأسلوب الملحمي، وفي الحقيقة أن القارئ يكاد ينسى ما للحادثة من قيمة تاريخية، وينصرف إلى ما

فيها من متعة قصصية، وقيمة أدبية، رغم ما التزمه الكاتب من سجع أعاق سلاسة الرواية، وقلل من حيويتها، إلا أن أسلوبه قد تميز بالوضوح، واتسم بالقدرة على تصوير المواقف المتأزمة، والصراع النفسي»[1].

وقد أضر السجع المتكلّف بنثر ابن غنام كثيرًا، حتى كان سببًا مباشرًا لحجب كتابه التاريخي عن المطابع؛ حين نفدت نسخ الكتاب الأصلي، ولم تبق سوى الطبعة التي حقّقها، وأعاد صياغتها الدكتور ناصر الدين الأسد، الذي وجد أن من الإحسان إلى الكتاب فك عباراته المسجوعة، بعد أن رأى «إغفال بعض المؤرخين الرجوع إليه؛ لصعوبة استجلاء الأحداث التاريخية من خلال السجع المتكلّف، مما أدى ببعض المؤرخين لهذه الفترة أن يكتفوا بتاريخ (ابن بشر)، مع أن تاريخ ابن غنام متقدم عليه، ويعد المصدر الأهم لتاريخ ابن بشر الذي نقل عن ابن غنام جميع الأحداث التاريخية التي رصدها في مؤلفه»[2].

ويبدو أن السبب الذي جعل ابن غنام يلجأ إلى هذا المنهج هو مواكبة أساليب التآليف التي كانت في عصره، و«الذي وجد بكثرة عند علماء الأحساء في القرن الثالث عشر الهجري»، كما في كتابات آل أبي بكر الملا، وعبدالله البيتوشي»[3]، ومن نثر البيتوشي الذي يحمل لنا أيضًا سمات المجتمع الذي نشأ فيه ابن غنام، قوله: «أنا في الأحساء أتقلب في روض من العيش أريض، وأتبختر في بُرْدٍ من العافية طويل عريض، بين سادة سمحاء، يكرمون ولا يرتكبون، ويبهرون، ولا يُرهبون، لا تملُّ مناجاتهم، ولا تُخشى مداجاتهم، إلى أخلاق في رقة النسيم، لا

(1) النثر الأدبي في المملكة العربية السعودية 1900–1945م، دارة الملك عبدالعزيز بالرياض، 1975م، ص31–33.

(2) من محاضرة للدكتور محمد بن سعد الشويعر عن مقبل الذكير وتاريخه في جامعة الملك فيصل بالأحساء، 23.

(3) الشعر الحديث في الأحساء 1301–1400هـ، د.خالد بن سعود الحليبي، نادي المنطقة الشرقية الأدبي، 1421هـ، ص50.

تكبو في حلبة الفخار جيادُهم، ولا تصلدُ في مشاهد النوال زنادهم، ثابتٌ لديهم فيما أبتغي قدمي، مجدًّا عندهم ما نفثه فمي ورقمه قلمي»[1].

ومثله معاصره عثمان بن سند البصري في كتابه سبائك العسجد، يقول واصفًا استفادته من بعض علمائها: «وذلك في الأحساء أعاد الله عمارتها، وأرجع بهجتها ونضارتها، سمعت منه القرآن برواية حفص عن عاصم، وجملني بالأدب تجميل السوار للمعاصم، كان والله البحر علمًا، والطود أناة وحلمًا»[2].

وكأنما أصبح السجع سمة قوة لغوية، ودليل ثراء لغوي، وعلامة تمكن في اللغة العربية الفصحى، في زمن شاعت فيه العامية، وبخاصة إذا كان يمثل ـ كما في شأن ابن غنام ـ معلم اللغة العربية وفارسها الأول في بيئة نجد العلمية.

وها هو ذا في خاتمة كتابه العقد الثمين يقول: «والمأمول ممن يتصفح هذه الأوراق، وسرح في روضها الأحداق، وكان له بآداب العلم اعتلاق، ومن صافي شراب العلماء كأس دهاق، وجنى من يانع أثمارها، واقتطف من شميم أزهارها، واقتبس من لامع أنوارها، أن يستر ما رأى من عوارها، فذلك من مكارم الأخلاق وأهلها للمساوئ يسترون، ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [سورة الشورى: 37]»[3].

ومن طبيعة السجع أن يجعل النص مترهلًا بكلمات لا حاجة إليها في المعنى، وليس لها من مهمة سوى أنها تمهد للسجعة؛ مثل قوله: «كان، ﷺ تعالى رحمة واسعة، وجاد على ضريحه من البر مقذفة هامعة»[4]. فما أبعد (مقذفة) هذه عن الذوق اللغوي الجميل، وهي تصف أعظم كلمة جامعة لمعاني الإحسان، وهي (البر)، وإنما جاءت لتكون متكأ غير مريح للكلمة التي تتم بها السجعة، وهي: (هامعة).

(1) تحفة المستفيد، لمحمد آل عبدالقادر، 2/ 379.

(2) سبائك العسجد، لابن سند، 24.

(3) العقد الثمين بتحقيق أ.إبراهيم الماس، 50-51.

(4) تاريخ ابن غنام، 1/ 526.

بل كان الحرص على المحسنات البديعية سببًا في زيادة حجم الكتاب، إذ إن التزام المؤلف به يجعله يضيف عبارات كاملة، ليحقق بها الموازنة، مثل قوله: «حتى انتظم الرأي واتفق، واجتمع الفكر واتسق»[1]، فلا حاجة للجملة الثانية سوى تحقيق رغبة المؤلف في استعراض قدرته على ترصيع النص التاريخي بفسيفساء البديع، وحسب.

ولا يطيل ابن غنام سجعاته، فقد سار -غالبًا- على الجمل المتوازنة، فهو لا يزيد على السجع في جملتين، ثم ينتقل إلى سجعة أخرى؛ ولا شك بأن ذلك خفف عن المؤلف أوضار التكلف الذي سيزيد من إرهاق القارئ لو أنه زاد كما يفعل بعض السجاعين في عصره وقبله، الذين يسرفون في ذلك؛ حتى ربما التزموا السجعة الواحدة في عشر جمل متتابعة.

يقول ابن غنام: «وفيها أيضًا سار عبدالعزيز بالمسلمين، وكانوا لأهل الرياض منتدبين، فأسرعوا لذلك الشان، حين تحكم الرقاد في الأجفان، فوصل إلى تلك البلاد، فعبأ للعدوة من أراد»[2].

ومع أن ابن غنام عاصر الشيخ محمد بن عبدالوهاب، ولا شك بأنه اطلع على مؤلفاته فإنه لم يتأثر بأسلوبه في التأليف، فالشيخ لم يسلك للسجع مسلكًا لا في مؤلفاته العلمية، ولا في رسائله فيما اطلعت عليه، وقد أورد ابن غنام نفسه كثيرًا من رسائل الشيخ محمد بن عبدالوهاب، ومنها: رسالته الشجية إلى شيخه الشيخ عبدالله بن محمد بن عبداللطيف الأحسائي، حيث ترك نفسه على سجيتها، فتدفق بحديث مرسل، ليس فيه معاضلة ولا استكراه، ومن ذلك قوله: «فقد وصل إلينا من ناحيتكم مكاتيب، فيها إنكار وتغليظ عليَّ، ولما قيل: إنك كتبت معهم، وقع في الخاطر بعض الشيء؛ لأن الله تعالى نشر لك من الذكر

(1) تاريخ ابن غنام، 2/ 682.
(2) تاريخ ابن غنام، 2/ 761.

الجميل، وأنزل في قلوب عباده لك من المحبة ما لم يؤتَهُ كثيرٌ من الناس، لما يُذكر عنك من مخالفة من قبلك من حكام السوء، وأيضًا لما أعلم منك من محبة الله ورسوله، وحسن الفهم، واتباع الحق، ولو خالفك فيه كبار أئمتكم»[1].

لكن ابن غنام آثر السجع، وعلى أية حال لعل للطريقة التي كان يقرأ بها أهل نجد النصوص الشرعية، والكتب العلمية في مجالسهم أثر في اختياره هذا المنحى في التأليف، إذ كانوا ينغمونها تنغيمًا رتيبًا، وقد أدركت ذلك من بعضهم، وربما كانوا يفعلون ذلك لتميز الكتب الشرعية بما يشبه التلاوة، أو أنها للإعانة على التأثير في نفوس السامعين، أو لتقريبها من الحفظ؛ إذ من الثابت أن تنغيم النصوص يسهل حفظها، بل وإنشاءها أصلًا لدى الشاعر والكاتب السجاع.

الخاتمة

أما بعد، فقد كان السعي وراء الكمال في هذا البحث مكلفًا جدًّا، ولم يحدث، فإن قلة المصادر والمراجع التي تخدم شعر ابن غنام ونثره كانت عائقًا كبيرًا، حاول الباحث أن يتغلب عليها بجمع شتات ما نُشر عن ابن غنام من أبحاث قليلة، ومقالات نادرة، مع الحرص على الوصول إلى بعض المخطوطات التي تركت أثرًا واضحًا في القيمة العلمية التي كان ينشدها.

ويدعي الباحث أن هذا البحث يمثل صورة متكاملة – وليست كاملة – لحياة ابن غنام، حرص فيه على استكمال بطاقته الشخصية، وسيرته الذاتية، ولمحات عن بيئته، وصلاته برجال عصره، ثم أورد توثيقًا لقصائده، لا يزال يحتاج إلى مزيد بحث لاستكماله، ولكنه أثبت وجود اثنتي عشرة قصيدة على الأقل، ما لم يجتمع من قبل.

(1) تاريخ ابن غنام، 1/ 247.

ثم عرض لدراسة وصفية – أكثر منها تحليلية – لما ورد من شعره ونثره مضمونًا وشكلًا، تبيّن من خلالها أن ابن غنام شاعر مطبوع، غير مكثر، وإن كان نفسه طويلًا في بناء قصائده، وقد تتبع منهج القصيدة الجاهلية في الهيكل في القصائد التي يوردها على شعراء، وخلص لغرضه في قصائد مناصرة الدعوة والرثاء.

كما ظهر أثر تخصصه اللغوي في شعره، من غريب، وبديع، وتلوين أسلوبي مقصود.

وأما نثره فكان مطبوعًا بالسجع المتكلف غالبًا، في كلا مؤلفيه المطبوعين، وهو ما ساد في عصره؛ وكان لذلك أثر سلبي في استكراه الأسلوب، وفي نقاء المعلومة، واختفاء الترسل الذي كان يمكن أن يطلق موهبة ابن غنام من أسرها.

ومن توصيات الباحث ما يلي:

1- إطلاق مشروع جديد لإصدار دواوين شعراء الدولة السعودية، ومنهم هذا الشاعر (ابن غنام)، يجمع شتات القصائد، ويصل إلى أقصى ما اجتمع من أبيات، والتأكد من أنها للشاعر، وليس من تزيد الرواة، فقد لحظت اختلافًا في الروايات في الألفاظ وترتيب الأبيات؛ وهو ما يؤكد أهمية جمع هذا الشعر وتحقيقه.
2- استكمال نسخة الأستاذ سليمان الخراشي؛ لأنه لم يكمل الكتاب حتى آخره، بل انقطعت به المخطوطات التي بين يديه في وسط قصيدة لامية منقولة عن شاعر لم يفصح عنه المؤلف، بينما مخطوطة مكتبة ندوة العلماء بلكهنؤ بالهند، تكمل الكتاب حتى آخره، بزيادة ثلاث لوحات ونصف (خمس صفحات)، وتنهي الكتاب بقول المؤرخ: «ودخلت السنة الثالثة عشرة بعد المائتين والألف»، كما ينهي الناسخ الكتاب بقوله: «وهذا آخر ما أرخه الشيخ حسين بن غنام الأحسائي، غفر الله

تعالى له، وقد انتهى تحريره في يوم السبت الرابع من شهر شوال المعظم أحد شهور سنة 1294هـ، الرابعة والتسعين بعد المائتين والألف، بقلم راجي عفو ربه الغفار عبده المذنب: شريدة بن علي الطيار، ...».

3- تحقيق كتابه: حاشية على شرح الشيخ محمد الخرشي لمتن خليل في الفقه المالكي، التي جمعها وقيدها في أثناء قراءته على الشيخ عيسى بن مطلق المالكي في بعض كتب المالكية، وبعض الفتاوى التي تحتفظ بها مكتبة الملك فهد الوطنية.

4- إنشاء دراسة مقارنة بين نتاج شعراء الدعوة خلال ثلاثة قرون - من الثاني عشر إلى الرابع عشر الهجري - لتتبع التأثر والتأثير فيما بينها، واستجلاء ما حدث من تطور أو تغيير.

والله الموفق لكل خير، فما أحسنت فمن الله تعالى، وله الشكر والمنة، وما أسأت فمني والشيطان، أعوذ بالله منه، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.